نار جهنم واستولت عليه، ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة. ومعنى: اطلاع النار عليها أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها، أو تطالع على سبيل المجاز معادن موجبها.

إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾.

﴿مؤصدة﴾ مطبقة قال:

تحن إلى أجبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

وقرئ: في عمد بضمتين، وعمد بسكون الميم، وعمد بفتحتين، والمعنى: أنه يؤكد ياسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد فنؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيثاقًا في استيثاق. ويجوز أن يكون المعنى: أنها عليهم مؤصدة موثقين.

في عمد ممدّدة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص. اللهم أجرنا من النار يا خير مستجار. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ محمد وأصحابه»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الفيل مكية

روي أنّ أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج. فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً فأغضبه ذلك. وقيل: أججت رفقة من العرب نارًا فحملتها الريح فأحرقتها. فحلف ليهدّ من الكعبة. فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود وكان قويًا عظيمًا، واثنا عشر فيلاً غيره، وقيل: ثمانية، وقيل: كان معه ألف فيل وكان وحده. فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع، فأبى، وعبأ جيشه وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول. فأرسل الله طيرًا سودًا. وقيل: خضرًا. وقيل: بيضًا، مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه. ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل. ودوى أبرهة فتساقطت أنامله وآرابه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائره يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي، فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتًا بين يديه.

وقيل: كان أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن رسول الله ﷺ بأربعين سنة وقيل: بثلاث وعشرين سنة. وعن عائشة رضي الله عنها: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان. وفيه أنّ أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليه فيها فجهره وكان رجلاً جسيمًا وسيمًا. وقيل: هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال. فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم في قديم الدهر، فالهاك عنه نود أخذلك. فقال: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه، ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول:

لا هم إن المرء يمـ ... ـنع أهله فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم أبدًا محالك
إن كنت تاركهم وكعـ ... ـبتنا فأمر ما بدا لك
يا رب لا أرجو لهم سواك ... يا رب فامنع منهم حماك

فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحر اليمن فقال: والله إنها لطير غريبة ما هي ببحرية ولا تهامية. وفيه أنّ أهل مكة قد احتووا على أموالهم وجمع عبد المطلب من جواهرهم وذهبهم الجور وكان سبب يساره، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سئل عن الطير فقال: حمام مكة منها. وقيل: جاءت عشية ثم صبحتهم، وعن عكرمة: من أصابته جدرته وهو أوّل جدري ظهر.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾.

وقرئ: ﴿ألم تر﴾، بسكون الراء للجد في إظهار أثر الجازم. والمعنى: انك رأيت آثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترةً فقامت لك مقام المشاهدة.

و﴿كيف﴾ في موضع نصب بفعل ربك، لا بألم تر لما في كيف من معنى الاستفهام.

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾.

﴿في تضليل﴾ في تضييع وإبطال. يقال: ضلل كيده، إذا جعله ضلالاً ضائعًا، ومنه قوله تعالى: وما كيد الكافرين إلا في ضلال. وقيل لامرئ القيس: الملك الضليل، لأنه ضلل ملك أبيه، أي: ضيعه، يعني: أنهم كادوا البيت أوّلاً ببناء القليس وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه وكادوه، ثانيًا بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾.

﴿أبابيل﴾ حزائق الواحدة إبالة، وفي أمثالهم: ضغث على إبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت الحزقة من الطير في

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 285.

تضامّها بالإبالة، وقيل: أبابيل، مثل عباديد، وشماطيط لا واحد لها. وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: يرميهم، أي: الله تعالى أو الطير، لأنه اسم جمع مذكر وإنما يؤنث على المعنى.

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾.

﴿وسجيل﴾ كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجينًا علم لديوان أعمالهم. كأنه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدوّن واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال لأنّ العذاب موصوف بذلك وأرسل عليهم طيرًا فأرسلنا عليهم الطوفان، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر، وقيل: هو معرب من سنككل، وقيل: من شديد عذابه، ورووا: بيت بن مقبل. ضربًا تواصت به الأبطال سجيلاً وإنما هو سجينًا. والقصيدة نونية مشهورة في ديوانه وشبهوا بورق الزرع إذا أكل. أي: وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو بتبن أكلته الدواب وراثته ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن. كقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾[1] أو أريد أكل حبه فبقي صفرًا منه. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة قريش مكية

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾.

﴿لإيلاف قريش﴾ متعلق بقوله: ﴿فليعبدوا﴾، أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين.

فإن قُلْتَ: فلِمَ دخلت الفاء؟ **قُلْتُ:** لما في الكلام من معنى الشرط لأنّ المعنى إما لا فليعبدوه لإيلافهم على معنى أنّ نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة وقيل: المعنى عجبوا لإيلاف قريش. وقيل: هو متعلق بما قبله. أي: فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش. وهذا بمنزلة التضمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقًا لا يصح إلا به. وهما في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل، وعن عمر أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب، وقرأ في الأولى والتين[3] والمعنى: أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيتهيبوهم زيادة تهيب ويحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم فلا يجترئ أحد عليهم، وكانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام. فيمتارون ويتجرون وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته فلا يتعرّض لهم، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم، والإيلاف من قولك: ألفت المكان أولفه إيلافًا إذا ألفته فأنا مؤلف، قال: من المؤلفات الزهو غير الأوراك. وقرئ: لئلاف قريش، أي: لمؤالفة قريش. وقيل: يقال ألفته إلفًا وإلافًا. وقرأ أبو جعفر: لإلف قريش. وقد جمعهما من قال:

زعمتم أنّ إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

وقرأ عكرمة: ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف، وقريش ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار. وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: بم سميت قريش؟ قال: بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى. وأنشد:

وقريش هي التي تسكن البحـ ـر بها سميت قريش قريشًا

والتصغير للتعظيم. وقيل: من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد، أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيمًا لأمر الإيلاف. وتنكيرًا بعظيم النعمة فيه، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولاً به كما نصب يتيمًا بإطعام. وأراد رحلتي الشتاء والصيف فأفرد لأمن الإلباس كقوله: كلوا في بعض بطنكم. وقرئ: رحلة بالضم، وهي الجهة التي يرحل إليها. والتنكير في جوع وخوف لشدتهما يعني: أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما، وأمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم، وقيل: كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة وأمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم، وقيل: ذلك كله بدعاء إبراهيم صلوات الله عليه. ومن بدع التفاسير: وآمنهم من خوف من أن تكون الخلافة في غيرهم. وقرئ: من خوف بإخفاء النون. عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها»[4].

(1) سورة المائدة، الآية: 75.

(2) ذكره الثعلبي وابن مردويه والواحدي في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 289.

(3) رواه عبد الرزاق في المصنف: 2/ 109، (الحديث رقم: 2697).

(4) ذكره الثعلبي والواحدي وابن مردويه في تفاسيرهم، زيلعي 4/ 293.